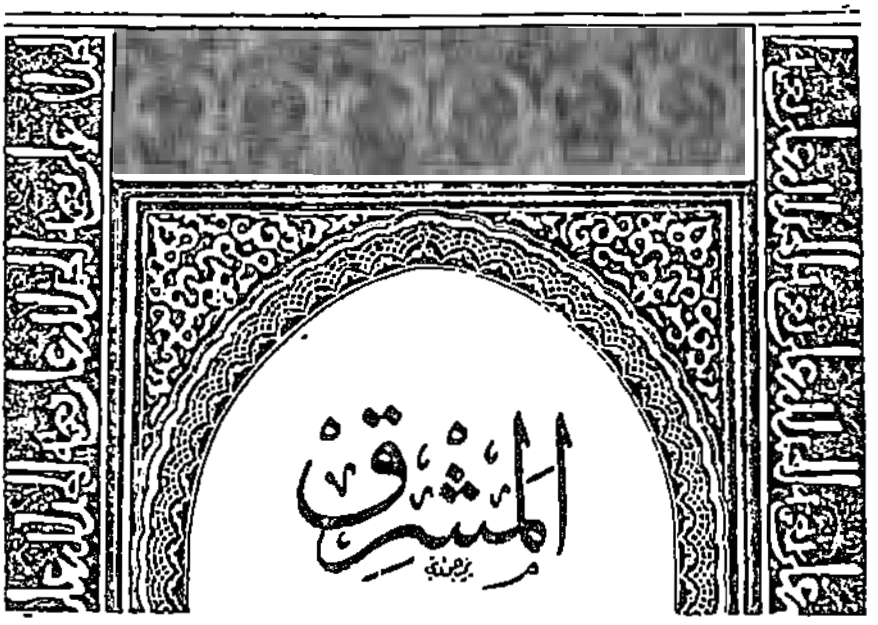

السنة الحادية والثلاثون — ايار ١٩٣٣

شهداء نجران

رسالة شمعون اسقف «بيت أرشم»

في الاضطهاد الذي حلّ بالنصارى الحميريين سنة ٥٢٤ للمسيح

عرّبها عن الاصل السرياني
الذي بوحنا عزّو كاتم أسرار البطريركية الانطاكية السريانية

١

توطئة

في عهد باباي الجاثليق شمعون اول من تبوأ كرسيّ المدائن من الجاثلقة الناطرة سنة ٤٩٧ م خلفاً لاقاق . وكان يعرف بابن هرمز ، وعلى عهده عُرف اولًا في نصيبين عيد الشمانين، ومن ثمّة ذاع استعماله في اقطار الشرق ؛ في ذاك العهد ، اشتهر شمعون هذا اسقف «بيت ارشم»[1] صاحب الرسالة التي نعنى بها اليوم. قال عنه السمعاني : انه كان مستقيم الايمان.

١١ بيت ارشم : قرية قريبة من سليق .

لكنه ترك النسطرة ، وانحاز الى فئة القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح حسبما يظهر من رسالة كتبها في بدعة نسطور وانتشارها . وقبل رسالة زينون الملك المعروفة « بالهينتيبيكون » مغضياً عن المجمع الخلقيدوني المقدّس ، وشارك في الدين انستاس الملك واخسنايا وقبرص الرهاوي وغيرهم ، ووالى الملكة تيودورا . وجعل يجوب بلاد مادي وفارس وما بين النهرين مستحثًّا النصارى على رذل البدعة النسطورية والتمسك بمذهب القائلين بالطبيعة الواحدة ، معتضداً بقباد ملك الفرس . حتى قال عنه العلامة ابن العبري انه ردّ كثيرين من وجوه المجوس الى النصرانية . ونظم ترجمته يوحنا مطران آسية في تواريخ الشرقيين الطوباويين مثنياً عليه وعادّه من نحلته .

وكان شمعون عالماً شهيراً في زمانه حتى لقب « بالفيلسوف الفارسيّ » . ومن مؤلفاته نافور او قدّاس مطلعه « ايها الاله حياة الجميع ونورهم » ، ورسالة في بدعة نسطور وبواعث انتشارها والشرور التي اتاها برصوم . وله الرسالة التي ننشرها اليوم معرّبة عن اصلها السرياني الذي طُبع اولًا في رومة العظمى سنة ١٨٨١ . ثم اعاد طبعها في ليبسيك المرحوم الاب بيجان اللازاري سنة ١٨٩٠ واودعها الجزء الاول من كتابه « اخبار الشهداء والقديسين » . وقد انفذها الكاتب من حيرة النعمان ، وهي من بلاد بابل بجوار عقولا اي الكوفة ، الى شمعون رئيس دير « جابولا » الواقع في ضواحي حلب . يصف فيها ما قاسى النصارى في بلاد حمير من الملك اليهودي الذي ملك ثمة بمالأة الفرس سنة ٥٢٤ للمسيح .

اما الحميريون فهم السبائيون او سكان اليمن ، بلاد العرب السعيدة ، عاصمتهم نجران واقعة على مسيرة عشرين يوماً من مكة . كانوا قد انضوا الى راية الايمان عن يد مار برتلماوس الرسول ، على ما يقال . ثم تورّطوا في ضلال الاريوسيين . الا انهم رذلوه بعد ذلك ولبثوا قويي المعتقد . وكانوا يدينون للملوك الحبشة ، ويؤدّون لهم الجزية . وكان لهؤلاء حقّ في اقامة ملك عليهم . فلما مات ملكهم لم يتأتَّ لاسبان ، ملك الحبشة ، في فصل الشتاء ، ان يجتاز البحر الاحمر ويشخص اليهم لاقامة ملك يخلف المتوفى . وكان اليهود ذوي نفوذ وبأس بينهم ، فانتهزوا فرصة تخلف اسبان عن الشخوص اليهم ونادوا برجل يدعى ذا نوّاس ملكاً

عليهم . وهذا اهلك من النصارى ما يتعادّ على العشرين الفاً .

قال ياقوت الحمويّ : ان اهل نجران عاصمة بلاد الحميريين اطبقوا على اتباع دين عيسى على اثر مشاهدتهم المعجزة التي افتعلها فيمون اذ بصلواته ارسل الله ريحاً زعزعاً فجعفت النخلة التي كانوا يعبدونها من جذرها. وكان هذا فيمون اسيراً نصرانياً ابتاعه عبد الله بن ثامر احد اشراف نجران .

وهذه هي الرسالة :

الرسالة

نعرّف حبّكم اننا في ٢٠ كانون الثاني سنة ٨٣٥ للاسكندر (الموافقة سنة ٥٢٤ للمسيح) ، خرجنا من حيرة النعمان ، مع القسيس مار ابراهيم بن اوفروس ، الذي اوفده يوستنيان ملك الروم الى المنذر ملك الحيرة ليعمل على السلم مع الرومانيين . وقد اتينا على ذكره في رسالتنا الاولى بقولنا اننا والمؤمنين الذين عندنا نقرّ بفضله ونسوق اليه عاطفة العرفان والشكران لانه يتذرّع بكل ذريعة لمساعدة جماعة المؤمنين. وقد وقف على ما كتبناه سابقاً وما نكتبه الآن.

بعد ان جدّ بنا السير في الفلاة جنوباً وشرقاً مسير عشرة ايام انتهينا الى الملك المنذر تجاه الجبال التي يدعوها العرب بلسانهم « الرملة » . ولما وجدنا سرادق المنذر ثار بنا العرب الوثنيون والمعدّيون وتشوّلوا علينا قائلين ان : « ماذا في وسعكم ان تصنعوا منذ اليوم فصاعداً ؟ فها ان مسيحكم قد طُرد من بلاد الرومانيين والفرس والحميريين ، بل من سائر البلاد . » وعلقوا يقذعوننا ، والقسّ مار ابراهيم ، بفظيع التعييرات ، ويوسعوننا سبّاً وشتماً . فتقسّتنا الهموم ، ونشبت في فؤادنا كآبة عظمى ، وتولانا ألم مذيب من شأنه ان يلذع المؤمنين المحقّين قاطبة . ونحن كذلك اذا برسول من ملك الحميريّين الى المنذر ملك الحيرة اقترب منّا ، وقد مسّ بيافوخه السماك تفطرساً ، وهو حامل رسالة فيها يعرّفه بعبارة ملؤها الزهو والتبجح ما افرغ على نصارى نجران ، عاصمة الحميريين ، من اكواب الاسواء وما انزل بهم من تباريح الاعذبة ، قال :

« ان الملك الذي اقامه الحبشة في بلادنا قد مات . وحلول فصل الشتاء

تثبطهم عن امّ بلادنا على الاثر . فاستأثرت انا بالملك على بلاد الحميريين . وعنّ لي ان افتتح ملكي بالعمل على امتحاق النصارى وابادتهم عن بكرة ابيهم من هذه البلاد بأسرها ، او يتهوّدون مثلنا ويكفرون بالمسيح . فتأتى لي بداءة ذي بدء ان اصانع الحبشة المتخلفين في بلادنا لحراسة البيعة التي خُيّل اليهم انهم ابتنوها فيها . فتمكنت من القاء القبض عليهم ونحرهم عن آخرهم ، وهم يعدّون ٢٨٠ رجلًا من راهب وعلماني ، واحلت بيعتهم الى كنيس لنا .

« وعندئذ عبّأت جيوشاً من ١٢٠ الف عسكري (كذا) ، واخذتهم في قيادتي ، وانطلقت الى العاصمة نجران وحاصرتها اياماً مديدة كُتب عليّ في غضونها الخيبة ولم افلح . واذ لاح لي ان لا حيلة لتدويخها حرباً اخلدت الى المدالسة ، فاقسمت لهم وأمّنتهم بميثاق غليظ ان لا ينالهم سوء ولا تشوكهم مني شوكة ان اعطوني مقادتهم وسلّموا اليّ المدينة طوعاً . ففتحوا الابواب من فورهم وبرز اليّ رؤساؤهم منقادين . فتراءى لي انه لا يجدر بي ان أبرّ بقسمي واحض النصارى اعدائي الصدقَ ، فحكمت على ألّا أفيهم بالعهد والامانة . فسألتهم بادئ بدء ان يأتوني بذهبهم وفضّتهم وسائر مقتناهم . فلبوا الامر لساعتهم ، وجاؤوا به امامي . فسألتهم ان يروني اسقفهم بولس . فاجابوا انه قد مات . فلم اصدّقهم حتى اروني قبره . فنبشته ، واخرجت عظامه ودفعتها طعمة الى النيران ، واحرقت على اثرها ايضاً بيعتهم وكهنتهم مع مَن وما وُجدَ فيها . ثم عرضت عليهم الكفران بالمسيح نفسه وبالصليب ، والتهوّد مثلنا . فابوا كل الاباء منكرين عليّ ذلك . فقلت لهم : ان الرومانيين قد اصبحوا على ثقة من ان المسيح كان بشراً فلماذا تغرون وراءه ؟ ألعلّكم خير منهم ؟ واننا لا نسومكم الكفران بالله ، صانع السماء والارض ، ولا ندعوكم الى السجود للشمس او القمر او احدى النيّرات او لكائن من الكائنات ، بل نروم ان تكفروا بيسوع الذي عدّ نفسه الهاً ، وهو ليس باله ، وتعترفون به انساناً . واستحثثناهم على ذلك بضروب المواعيد والترغيبات . فابوا الكفران به ، ولم يشاءوا ان يقولوا انه بشر ، بل والوا التمسك بغوايتهم ومتهم قائلين انه الله وابن الرحمان . وآثروا الموت عنه . وبلغ الحمق من زعيمهم ان يغلظ لنا في الكلام . فجوزي بما استحق ،

وقُتل وزعماءهم جميعاً . اما البقية فهربوا وتواروا عن العيان ، ولم نقف بعد على اثرهم . فاصدرنا الامر بقتلهم حيث يُعثر عليهم او يكفروا بالمسيح ويتهوّدوا مثلنا .

«وحينئذٍ استقدمنا نساءهم ، وقلنا لهنّ : «ها قد عاينتنّ بنواظركنّ ملحمة جميع رجالكنّ ، لانهم جدّفوا قائلين انّ المسيح اله وابن الله . فبارأفنّ انتنّ ، والحالة هذه ، بنفوسكنّ وبنيكنّ وبناتكنّ ، واكفرن بالمسيح وبالصليب ، وتهوّدن نظيرنا فتحيينّ . والا فاستهدفنّ للموت الاحمر الزؤام .» فكان جوابهنّ مفاضلة رجالهنّ بالتجديف قائلات : «انّ المسيح لهو اله وابن الرحمان ، وبه نؤمن ، ولصليبه نسجد ، وعنه نموت . حاشانا ان نكفر به او نحيا دون رجالنا ، بل نموت معهم ونظيرهم عن المسيح .» وأخذنا في السؤال ليقلنّ ان المسيح بشر ويحيينّ ، فلم يتزلنّ عند بغيتنا . واستحبين الموت على الكفران بذلك الساحر المضلّ . وكان بين هؤلاء ممن يدعين راهبات . وأيم الحق قد خبأ لنا الدهر من مشاهدتنا اياهن عجباً ، لمّا كنّ يتشاجرن على السباق الى منقع القتل مع اللواتي مات رجالهنّ ، ويتلجّجن عليهنّ ليقتلنّ اولاً ؛ بينما انّ هؤلاء يأبينّ ويتهرنهنّ قائلات : «اننا احقّ بالقتل اولاً لنقفو آثار رجالنا .» وصرنّ يبادرنّ الى اقناع بعضهنّ بالتوسّل والالتماس في ايّة منهنّ تموت اولاً . وكنا نستغرب في الضحك لدن نظرنا تشاجرهنّ ، وسمعنا توسّلهنّ الى بعضهنّ في من تموت اولاً . بل كنا نستقطع جنونهنّ ، وكيف غرين وراء الرجل الذي جرؤ على التجديف بعدّه نفسه الهاً . ومما ملك علينا أمرنا هو ان الفتيان ايضاً ، الذين كنا نظنّ انهم لا يعقلون شيئاً ، كانوا ينشأون في الغواية ذاتها . اخيراً حسمنا لمشاجرتهنّ مع بعضهنّ في حالة عاتهتهنّ امرنا فقُتلن عن آخرتهنّ ، مستبقين امرأة واحدة فقط منهنّ لسبب جاهها وعترتها وجمالها ، ظنّاً منا عساها ان تشفق على نفسها وبناتها ، وتذعن للكفران بالمسيح . فامرنا ان لا تقتل . اما هي فلانها لم تمت ثار ثائرها ودخلت المدينة كئيبة حزينة .

«وفي اليوم الثالث اوفدنا من يقول لها ان تكفر بالمسيح فتحيا ، والا فتموت . فبادرت على اثر سماعها ذلك ، وبرزت الى السوق حاسرة الرأس ، سافرة المحيّا ، وتوسّطت المدينة ، مع انّ وجهها لم يره احد منذ يفعت قطّ ولم تكن لتسير في

المدينة نهارًا او ليلًا قبل اليوم، على ما خلص الينا. وقد روى لنا الشهود العيان آنفًا انها كانت تصيح قائلة: «ايتها النساء النجرانيات رصيفاتي من نصرانيات، ويهوديات، ووثنيات، اسمعنني: انكنّ لعارفات أنني نصرانية، وملتات بعترتي وعشيرتي ومَن وابنة مَن انا، وداريات بما لديَّ من ذهب وفضة وعبيد واماء وضياع وغلال، ولا يعوزني شيء. والآن قد قتل بعلي في سبيل المسيح. فان كنت اروم ان اكون لرجل آخر فلا ينقصني الرجل، بل متوافرون الراغبون فيّ. بيد اني اصرّح لكنّ اني في هذا اليوم عينه لديّ اربعون الف دينار مختومة ومودعة خزانتي، عدا ما في خزانة زوجي، وخلا ما في حيازتي من الذهب والفضة والمصوغات والجواهر واليواقيت والياشب الحليتي. وقد يوجد من حظي منكنّ بمشاهدتها مع حللي الجميلة وثيابي الفاخرة في داري. وانكنّ لتعلمن، يا لداتي، بأن ليس للمرأة ايام غبطة وسرور تحاكي ايام عرسها، اذ منها فصاعدًا تتتالى الضيقات والكرب: فان ولدت البنين فبالآلام والاوجاع تلدهم، واذا عقمت وحرمت البنين فتضحى فريسة الهمّ والغمّ، وان دفنت البنين فبالبكاء والندب تقبرهم. اما انا فقد فطمت من اليوم فصاعدًا من هذه كلها. وقد كنت ايام عرسي الاول عائمةً في مجامع الماء والرخاء وهوذا بناتي الخمس بتولات لانهنّ لم يصرن لرجل، زيّنتهنّ بكلّ ابتهاج للمسيح. الا انعمنّ النظر فيّ، يا رفيقاتي، فترين انكنّ قد حظيتنّ برؤية وجهي مرّتين: احداهما في عرسي الاول اذ دخلت الى خطيبي الاول سافرةَ المحيا امامكنّ جميعًا، والثانية هي اليوم لاني ذاهبة سافرةَ المحيا ايضًا الى المسيح ربّي والهي واله بناتي الا انظرن اليّ، يا زميلاتي. انظرنَ بحقكنّ اليّ، والى بناتي، فاننا لا نتلّ عنكنّ وسامة وصباحة. فبهذا الجمال غير الملوّث بكفر اليهود، اذهب الى المسيح ربّي. وجمالي عينه يكون لي شاهدًا امام الهي على انه لم يستطع ان يغويني باثم الكفران به، بل ان ذهبي وفضّتي ومصوغ حليّ باسره، وعبيدي واماني، وسائر ما تملكه يميني، كل هذا يكون لي شاهد عدل على اني لم اشغف بشيء واكفر بالمسيح ربي. والآن قد ارسل اليّ الملك العاتي لاكفرنّ بالمسيح واحيا. اما انا فاجبته: ان كفرت بالمسيح امت، وان متّ في سبيله أعش. حاشاي، يا زميلاتي، حاشاي ان اكفر

بالمسيح الهي مَن به آمنت ، وباسمه اعتمدت وعمّدت بناتي ! واني اسجد لصليبه ، وأموت في سبيله ، انا وبناتي مثلما هو مات عنا وبسببنا . وها اننا ندع ذهب الارض للارض ، وكل مَن تحدّثه نفسه بأخذه فليكن له ، وكل من يرغب في فضتي ومصوغ زينتي فليأخذها . فاني أتخلى عن كلّ شيء لاذهب آخذ عوضه من المسيح . طوبى لكنّ ، يا رفيقاتي ، ان اصغتنّ اليّ وقبلتنّ كلماتي ! طوبى لكنّ ، يا حبيباتي ، ان عرفتنّ صدق مَن نموت ، انا وبناتي ، في سبيل حبه ! طوبى لكنّ ، ان احببتنّ المسيح ! بل طوبى لي ولبناتي الى آية غبطة ذاهبات ! والآن فليملك الامن والسلام على شعب المسيح ، وليضحينّ دم اخوتي واخواتي الذين قتلوا من اجل المسيح سوراً حصيناً لهذه المدينة ؛ ان لبثت في دين المسيح ربي . ها اني خارجة مسفرة الوجه ، مشرقة الجبين ، من هذه البلدة حيث كنت فيها كفي قبة الشهادة لاذهب وبناتي الى مدينة اخرى خطبتهنّ اليها . فصلّينَ علينا ، أيا رصيفاتي ، ليقبلني المسيح ويجود عليّ بالمغفرة ، لاني بقيت في هذه الحياة ثلثة ايام بعد ابي بناتي .»

«فبلغ الى مسمعنا صوت الولولة والنحيب من المدينة ، فارتمنا له جميعاً ، لاننا لم نكن لندري بداعي عويل النسوة . ولمّا آب الينا الرجال الذين كنا ارسلناهم لاستطلاع الخبر وأتوا الينا بجميع ما فاهت به هذه الجموعة على مسمع من المدينة جمعاء ، فعلقت النساء يبكين وينحن ، صحّت عزيمتنا على قتلهم لو لم يُشفع فيها ، لانهم تركوها تفوه بمثل هذا الكلام وتغوي المدينة بسحرها .

«ونحن لكذلك اذا بها خرجت من المدينة حاسرة الرأس كالمسوسة ، واتت ومثلت امامي سافرة الوجه ، غير خجلة ، وممسكة بيديها بناتها مزيّنات كأنهنّ يذهبنّ الى وليمة الاعراس . فحلّت ضفائر شعرها ، ولفتها على يديها ، ورفعت رأسها ، ومدّت عنقها واتحنت امامي قائلة بصوت عالٍ : « اني وبناتي نصرانيات وغوت عن المسيح ، فحزّ رؤوسنا لنتطلق وندرك اخوتنا واخواتنا وابا بناتي .» اما انا ، فرغم هذا الجنون كله ، استأنفت محاولة اقناعها بالترغيب والترهيب وضروب المجاملة وصنوف التهاويل لتكفر بالمسيح وتقول فقط انه بشر . فابت ذلك بتاتاً ، بل أدّى ذلك بصغرى بناتها الى التجرّؤ على امتهاني من جراء ما

قلت لامها . واذ رأيت ان لا وسيلة لحملها على الكفران بالمسيح امرت ، ارهاباً للنصارى طرّا ، بأن تلقى على الارض ويذبح بنلتها اولاً ويسكب دمهنّ في فيها . وبعدئذٍ يؤخذ رأسها . وهكذا صار . وعلى اثر ذبح بناتها ، أمرت فاقيمت عن الارض . فبادرتها بالسؤال قائلاً : « كيف وجدتِ مذاق دم بناتك ؟ » فاقسمت في خبلها بذلك الغاوي انها وجدته كقربان طاهر بلا عيب في فمها وفي نفسها . فامرنا بجزّ رأسها . بيد انني اقسم بالله العزيز ملك اسرائيل اني اكتأبت جدًّا جدًّا لسبب وضاءتها وحسنها وجمال بناتها . وعراني الذهول من خبالها الذي ساقها الى ان تغوى وراء رجل ساحر مضلّ دفعته الجرأة الى ان يجدّف ويجعل نفسه الهاً ، ولم تأخذها الرأفة بنفسها وبناتها .

« اما في شأن بني القتلى وبناتهم فقد رأى عظماء كهنتنا ونحن ان نصنع معهم ما كُتب في الشريعة لئلا يجازي الابن بجرائر ابيه . فامرنا ان يخلّى سبيلهم حتى يبلغوا سنّ الرشد ، وحينئذٍ يخيون ان كفروا بالمسيح وتهوّدوا ، والا فيموتون هم ايضاً ان نسجوا على منوال والديهم . وقد وزّعناهم على كبرائنا .

« ها قد سردت لجلالتك كتابةً هذه الامور كلها ليثلج صدرك عند اطلاعك على اننا لم ندع نصرانياً واحداً في بلادنا . فاصنعنّ انت ايضاً على شاكلتنا باحالتك جميع النصارى الذين تحت سلطانك الى دياناتك . اما في شأن اليهود الموجودين تحت إمرتك فترغب ان تهوي اليهم بيد المساعدة في كل امر وشأن . وكلما تبتغي جلالتك قبالة ذلك اطلعنا عليه لنبعث به اليك مسرورين . »

هذا ماكتبه ملك الحيريّين الى المنذر ملك الحيرة ، ونحن عنده في البرية ، مع القسيس الفاضل مار ابراهيم بن اوفروس الآنف الذكر ، الذي ارسله الملك يوستينيان صحبة اسقف « بيت رصفة » القديس مار سرجيوس ليوطّد دعائم الصلح بين عرب الفرس والرومانيين . على ان الرسالة الموما اليها لم تأتِ على ذكر امتهان الشهداء الطوباويّين والمرأة الفاضلة وبناتها ملك الحيريّين . انما الرسول روى ذلك مشافهة للمنذر ملك الحيرة هازئاً بالنصارى بحضرة اليهود والوثنيين ، فاولاهم حبوراً ، وافعمنا غمًّا عظيماً . فما نسرده اذًا في هذه الرسالة مأثور عن كتابة الملك ، وعن رواية الرسول .

(لها صلة)